

هل جعلنا الرأسمالية النيوليبرالية زنوجا كلنا

كيف سيكون المستقبل، بعد أن تقهقرت أوروبا وما عادت مركز العالم



يجب الخروج من الليل الطويل لما بعد الكولونيالية



الزنجي مفهوم أنتجته الرجل الأبيض

الاجتماعية للنضال ضد موت الإنسان، ووضع حد للرشوة والفساد. ولا يمكن الخروج من هذا الوضع إلا متى غير الإنسان ما بنفسه، على غرار فرانس فانون، حين رسم للمناضلين الطريق الواجب اتباعها "منذ آمد بعيد، السماء ذات النجوم التي كانت تترك إمانويل كانت منقطع الأنفاس، باحت لنا بأسرارها".

ولكن المؤرخ والمفكر الكاميروني لا يملك إلا أن يتساءل عما سوف نشهده في المستقبل، بعد أن تقهقرت أوروبا وما عادت مركز العالم، بل صارت تقع في ضواحيه، وحتى في مناطق جهوية بالنسبة إلى العالم الجديد، كما وصفها المؤرخ الهندي ديباش شكاربارتي، فهل ستزول مسألة العرق بتراجع وزن أوروبا أم أنه سيستخذ أشكالا جديدة؟

وفي رايه أننا مقبلون على الاحتمال الثاني، بعد بروز "عرقية بلا عرق" في أميركا وأوروبا، حيث تجند العقيدة والثقافة لتحل محل البيولوجيا في التعامل مع الآخر المختلف. وهو ما يؤكد بعض المفكرين عالم الأنتروبولوجيا ريجيس ميران وعالم الاجتماع فاليري راسبلوس في كتاب "فخاخ الهوية الثقافية"، أو رفاييل لوجي في "هذه الشعوب التي تأتي"، حيث تشكل ثيمة الإسلاموفوبيا صورة دائمة وراهنة للعنصرية الثقافية.

من التحولات العميقة التي عرفتها الرأسمالية في السبعينات، وتتوق في آخر المطاف إلى إلغاء السياسي وتفكيك كل فضاء وكل رابط، سواء في الحاضر أو ما بين الأجيال.

«العرق الزنجي» هو مرادف للفرقة والنزوات اللاعقلانية والشبقية البدائية، لم يدخل التاريخ وظل غارقا في الخرافة

ورغم ذلك، يرفع ميمبي "قداسا للعبد" ويمد البصر إلى أفق انعتاق، يتلبس فيه شكل جديد من الأنسنة، ويسمح بالخروج من الليل الطويل لما بعد الكولونيالية. في هذا الصعود المأمول نحو الإنسانية وفي عالم متحرر من ثقل العرق، يلتقي من جديد بفانون ومشروع الصعود المشترك في الإنسانية. فهو يدافع مثله عن بعث "عالم مشترك، ذي إنسانية واحدة، وتاريخ ومستقبل يمكن أن نمنحهما لأنفسنا معا بالتساوي"، "عالم كلي" بعبارة المارتينيكي إدوار غليسان. ولكن العالم لن يكون في مامن ما لم تهتم الإنسانية ببناء ما أسماه ميمبي "مخدرات الحياة"، وبعث المؤسسات

المستوى العالمي، و"صيرورة العالم الزنجية" هي لحظة لم نعد نتميز فيها بين الإنسان والشيء والبضاعة. وهو ما كان تناوله فرانس فانون وديريك الكوت ونيكولاس غيلين لتصوير عنف الغزو الكولونيالي، وخاصة إيمي سيزير الذي نفي في "خطاب حول الكولونيالية" ما روجه المستعمر عن صلة الاستعمار بالحضارة، وأكد أنها معادلة عديمة الشرف، وليدة الجشع والإطعام والقوة، فحياة المستعمر كانت صراعا دائما ضد موت كلي الوجود.

ضد موت الإنسان

أما الزمن الحاضر، فيتميز في رأي الكاتب بانحسار الفضاء وإعادة إعمار الأرض، نتج عنهما تنامي الميز الاجتماعي وتدفق أمواج المهاجرين على نطاق كوني، فتكاثرت الحدود وتم استحضار "شبح العدو" لجعل حالة الطوارئ أمرا طبيعياً، فلم يعد ثمة عمال بل رحالة عمل، وشعوب فوق الحاجة اقتصتها المنظومات السياسية والاقتصادية.

وميمبي يستحضر ميشيل فوكو والمؤرخ وعالم الاجتماع والايديولوجي إمانويل فاليرشتاين ليربط أزمة المهاجرين والتصرف في البشرية "الزائدة" بمصطلحين كان صاغهما في أعماله السابقة وهما "سياسة النعي" وخاصة "اقتصاد النعي" لأن من وظائف الرأسمالية الراهنة إنتاج فائض من البشر لم تعد في حاجة لاستغلاله، بل للتصرف فيه فقط.

مثلما يستدعي ميمبي المفكر وعالم الاجتماع البولندي زيفغوند باومان للتركيز على تعريض الرأسمالية هذه "الرواسب" أو "الفضلات" إلى كل أنواع المخاطر، أو عزلها وجسها في مناطق مراقبة، وهو ما يمثل الوجه السياسي لهذا النوع من العنف الرأسمالي المعاصر. ويؤكد ميمبي أن منطق توزيع العنق على مستوى المعمورة والعملية الواسعة للحط من قيمة القوى المنتجة لا تسلم منهما أي جهة في العالم، ففي اليونان مثلاً، تم تطبيق فكرة "حكومة خاصة غير مباشرة" على الوضع الذي تعانیه، وهو مفهوم وقعت صياغته في التسعينات كشكل من أشكال التصرف في الذن، الذي يبنى في البلدان التابعة اقتصادياً وتكنولوجياً نزع الملكية على هامش المؤسسات، مع خصخصة كل ما هو عام لجعل الأفراد مسؤولين عن كل الأدواء، ونقل السلطة السيادية إلى مؤسسات غير ديمقراطية. والحكومة الخاصة غير المباشرة هي حركة من النخب تنهمل مصادرها

الأوروبية لم تقدم هي الأخرى مثل تلك المواقف، تشهد على ذلك كتابات هيغل التي تصف "الزنجي" بكونه لم يغادر حيوانيته، وترى أن "عقل الزوج" ليس سوى "تشايط بدائي لنسج الخرافات"، وتلك الأفكار التي استوتحت منها "هيمنة العرق" مسوغاتها.

والمعلوم أن أيديولوجيات "الأجناس المهيمنة" برزت في ظرف استعماري، وشكلت مطلقاً للحدثة، وما الحدثة إلا الاسم الآخر للمشروع التوسعي الأوروبي في الإمبراطوريات الكولونيالية التي بسطت نفوذها بداية من القرن الثامن عشر.

وفي هذا يقول ميمبي "إن نقد الحدثة ناقص ولا يكتمل إلا إذا فهمنا أن ظهوره رافق ظهور مفهوم العرق والنحول البطيء لهذا المفهوم كحاضنة مميزة لآليات الهيمنة، في الماضي كما في الحاضر". فثيمة الفرق العرقي، بمعنى الفرق في قيمة الأعراق، باتت طبيعية في الثقافة الجماهيرية، عبر المتاحف وحادائق الحيوان البشرية والصحافة والفنون والآداب خلال الفترة الاستعمارية، وقد تعرضت أجيال من

الفرنسيين إلى بيداغوجيا التعود على العنصرية. وكانت الأسباب الاقتصادية والأيديولوجية أو السياسية للاستعمار قد جذت الدال العرقي، الذي تلخص في وجوب نقل الحضارة إلى "الأعراق الدنيا"، وما زال المؤرخون يذكرون دفاع جول فيري عام 1885 عن سياسة الاستعمار، القائم على "مهمة الإنسان الأبيض الحضارية" "ينبغي أن نقول بصريح العبارة أن الأعراق السامية تملك حقاً تجاه الأعراق الدنيا.. أكرر أن للأعراق السامية حقاً لأن لديها واجباً، واجب تحضير الأعراق الدنيا.. أي أن "العقل الزنجي" والمشروع الحداثي الأوروبي قاما على مبدأ "تراتبية أعراق" و"فرق بيولوجي مزعوم بين العرق الأبيض" و"العرق الزنجي".

ويلاحظ ميمبي أن عبارة "زنجي" مصطلح يحمل عدة معانٍ ما فتئت تتغير عبر التاريخ، ولكنها تبقى في كل الحالات من ابتداء الرجل الأبيض، كنتاج مسار تصنيف وعنصرة وحصيلة للوظيفية الجينية للرأسمالية. فالعبد ذو الأصول الأفريقية في أميركا هو عالمياً كعنصر مفتاح لمنظ تراكم على

النيوليبرالية التي أدت إلى خصخصة العالم والصلة المطردة بين المال والمجمع العسكري والتكنولوجيات الإلكترونية والرقمية. أي أن الظاهرة تواصلت حتى عصر الرأسمالية النيوليبرالية، التي يعتبرها ميمبي نزعة تكاد تكون غريزية لتحويل الإنسان إلى شيء، وبسط سيطرة لا حدود لها على مجمل الكائنات الحية.

وبذلك انضحت صيرورة الإنسان الآلة والصلبة المطردة بين المال والمجمع قبل، لتلبي غاية مضاعفة هي التكاثر والتمتع بمتاع هذا العالم، والتاقلم باستمرار، حسب منطق قصير المدى، مع متطلبات المجتمع، أي أن صيرورة الفرد في العصر النيوليبرالي هي "عولة الوضع الزنجي".

ما يعني أن مجتمعا كهذا سيؤدي في النهاية إلى انحاد الأفراد إلى إنسانية زائدة عن الحاجة، مهمل، لا يحتاج إليها رأس المال لتأمين اشتغاله. لفهم التمثلات المبهمة التي لها صلة بعبارة "زنجي" في اللوغي الجمعي الأوروبي، خصص أشيل ميمبي جانباً من

كتابه مسار تحول أناس من أصول أفريقية إلى "زوج"، وهو ما كان فرانس فانون قد عبر عنه في "بشرة سوداء، أقتعة بيضاء"، حول المعنى المضمّر لكلمة "زنجي" في المخيال الغربي: "الزنجي دابة، الزنجي رديء، الزنجي شذير، الزنجي دميم".

ويحلل ميمبي الكيفية التي صار بها "الزنجي" في ذلك المخيال علامة غريبة لا يمكن استيعابها، لأن "العرق الزنجي" هو مرادف للفرقة والنزوات اللاعقلانية والشبقية البدائية، فهو لم يدخل التاريخ، وظل غارقاً في عالم السحر والمعتقدات، وذهنيته الوحشية لا تزال تنتمي إلى عصر سابق للمنطق. أما "العرق الأبيض"، فهو الوحيد الذي يملك الإرادة والقدرة على بناء حياة تاريخية، وهذا في رأي ميمبي هو "العقل الزنجي"، الذي يعكس جملة من الأصوات والمعطيات والخطب والمعارف والتعليق والحماقات تتركز كلها حول الأداة أو الشيء أو البشر من ذوي الأصول الأفريقية، وتؤكد أن تلك هي أسماؤهم ونعوتهم وصفاتهم ومصيرهم.

ولن كانت النصوص القديمة تحمل أثر ابتكار صورة "الزنجي"، فإن الفلسفة

هل نصبح كلنا زنوجا غدا؟ بهذا السؤال يفتتح المفكر الكاميروني أشيل ميمبي كتابه "نقد العقل الزنجي"، ليراجع ظهور مصطلح "الزنجي" منذ بدء الاسترقاق الأطلسي في القرن الخامس عشر إلى زمننا الحالي، الذي فرضت فيه العولمة، وبيّن علاقة ذلك المصطلح بالعرق والعرقية، ليتخذه مطية لنقد الوضع الراهن في ظل الانحرافات الرأسمالية النيوليبرالية.



أبو بكر العيادي
كاتب تونسي

يعتبر الكاميروني أشيل ميمبي من المنظرين الجادين في دراسات ما بعد الكولونيالية. ويعد كتابه "الخيال السياسي في أفريقيا المعاصرة"، و"أفريقيا وفك التبعية الكولونيالية" اللذين رسخ بهما قدمه في هذا المجال، وحاز بفضلهما تقدير علماء الاجتماع والاقتصاد والمؤرخين في العالم، صدر له مؤخرا "نقد العقل الزنجي"، وهو كتاب يتناول فيه قضية الغربة وعلاقتها بمصطلح "الزنجي" الذي يربطه بتاريخ الرأسمالية، ويتأمل في ما قد يصيب العالم من ميز في ظل نيوليبرالية شرسة، أو ما أسماه "صيرورة العالم الزنجية". فما الذي يعنيه بصيرورة العالم الزنجية؟

يقف ميمبي قريبا من فرانس فانون في تحليله للكولونيالية وما بعدها، واعتباره "العرق" و"الزنجي" شيئا واحدا في المخيال الأوروبي، بل هو يستشبهه بقولته "بحصر الجسد والكائن الحي في مسألة المظهر، والبشرة واللون، وبإضافته على البشرة واللون سرديّة ذات قاعدة بيولوجية، جعلت العوالم الأوروبية-أميركية بصفة خاصة من الزنجي والعرق وجهين لعملة واحدة، هي الجنون المقتن".

صورة الزنجي

الخلط بين "العرق" و"الزنجي" الراسخ في الفكر الأوروبي يمثل مرتكزا غير معلن قامت عليه الحدثة، بوصفها مشروع معرفة وحكم. ونقد الحدثة والرأسمالية لم يبرز بما فيه الكفاية أثر ذلك الجمع بين العرق والزنجي في تشكيل العالم المعاصر. وهو ما ينهض به ميمبي هنا، حيث ميز ثلاث مراحل إلى "صيرورة العالم الزنجية"، الأولى تقع ما بين القرنين الخامس عشر والتاسع عشر، وظهرت مع بداية الاسترقاق الأطلسي الذي مثل ركيزة الحدثة، والرأسمالية الأوربي، وتميزت بالنهب وتحويل الأفرقة إلى بضائع، حيث اغتصب منهم كل ما يملكون حتى أسماعهم ولغاتهم. والثانية تمتد من أواخر القرن الثامن عشر إلى نهاية ومطالبات، وبدا خلالها الزوج ينطقون بلغتهم الخاصة، ويلحون على حقهم في أن يكونوا بشرا تأمي الشروط في العالم الحي.

وتبدأ المرحلة الثالثة في مطلع القرن الحالي وتتميز بانتشار الأسواق على نطاق عالمي، وضغطها على الموارد الطبيعية والحياة البشرية وهيمنة



أشيل ميمبي

الزمن الحاضر يتميز بانحسار الفضاء وإعادة الإعمار، نتج عنهما تنامي الميز الاجتماعي وتدفق أمواج المهاجرين